النظريات الفلسفية للتصوف

تتشابه عقائد الصوفية وأفكارهم وتتنوَّع بتنوع المدارس والطرق الصوفية والنظريات التي تنتمي إليها كل طريقة ويمكن إجمالها في النظريات التالية :

النظرية الأولى : نظرية الاتحاد والحلول :

وفيها اختلط التصوف بالفلسفة اليونانية والهندية وبالديانة النصرانية ، وظهرت أفكار الحلول والاتحاد موافقة لقول الفلاسفة ، وبذلك تعد هذه المرحلة من أخطر المراحل التي مر بها التصوف والتي تعدت مرحلة البدع العملية إلى البدع العلمية التي تقوم على نظريات فلسفية و التي بها يخرج التصوف عن الإسلام بالكلية ، حيث يتصور الصوفي عندها أن الله قد حل فيه وأنه قد اتحد هو بالله ، فمن أقوالهم : أنا الحق ، و ما في الجبة إلا الله ، وما إلى ذلك من الشطحات التي تنطلق على ألسنتهم في لحظات السكر بخمرة الشهود على مايزعمون . ومن أشهر رموز هذه النظرية : أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ٢٤٤ . ٣٠٩هـ ولد بفارس حفيداً لرجل زرادشتي ، ونشأ في واسط بالعراق ، وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين ، و القول بوحدة الوجود من أشنع البدع المكفرة و أقبحها على الإطلاق ، رُمي بالكفر وقتل مصلوباً لتهم أربع وُجهت إليه : .

١. اتصاله بالقرامطة .

٢. قوله : أنا الحق .

٣. اعتقاد أتباعه ألوهيته .

٤. قوله في الحج : يرى أن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها .

ومن رموزها أيضاً : السهروردي ٥٨٧هـ ، و ابن عربي ت ٦٣٨هـ ، وابن الفارض ٦٣٢هـ ، و ابن سبعين ت ٦٦٧ هـ .

النظرية الثانية : نظرية وحدة الوجود :

معناها : عدم الانفصال بين الخالق والمخلوق عياذاً بالله تعالى ، وهي متأثرة كسابقتها بالفلسفة اليونانية والهندية وبالديانة النصرانية .

زعيم هذه النظرية ومؤسسها محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، ويعتبر هو وابن الفارض وابن سبعين الذين أعادوا عقيدة الحلاج الهالك في أوائل القرن الرابع . و ابن عربي هو

صاحب كتاب فصوص الحكم والذي فصل فيه عقيدته المسماه بوحدة الوجود ، والذي ادعى في هذا الكتاب أن النبي ﷺ قد كتبه له بنصه ، وسلمه إياه يداً بيد ، وقال اخرج به على الناس . و من إفتراءاته تحريف معاني القرآن الكريم ، و تأويلها وفقاً لمذهبه ، فمن ذلك قوله في قوم نوح الذين عبدوا الأصنام لم يعبدوا إلا الله وإنهم بذلك موحدون حقاً فلذلك كافأهم الله الذي هم نفسه وذاته بأن أغرقهم في بحار العلم في الله [1].

وهذا الخبيث لا يكذب الرسل فقط في إخبارهم عن الله والغيب ، بل يكذب ويكابر في المحسوس فإنه بما زعم في وحدة الوجود وأنه ليس إلا الله ، مدعياً أنه هو عين المخلوقات، وبذلك لا يكون هناك فارق بين الملك والشيطان والمؤمن والكافر ، والحلال والحرام ، ومن عبد الشمس والقمر ، ومن كفر بعبادة الشمس والقمر... بل ادعى كذلك أن الجنة والنار كليهما للنعيم ، وأن أهل النار منعمون كما أهل الجنة ، قال :

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد، فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صاينُ

نقد هاتين النظريتين :

١ . يقال في إبطال القول بوحدة الوجود : التي يدعي القائلون بها أن الكون ما هو إلا الله سبحانه . ووفق سخف الصوفية وقولهم الخبيث فإن كل ما نراه في هذا الكون من حجر وشجر وبشر ما هو إلا الخالق سبحانه ، حتى قال بعض هؤلاء الأراذل :

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

وهذه بدعة إلحادية قبيحة قائلها كافر ، لا يقبلها عقل و لا دين :

أ . أما في العقل فلا شيء يسند قولا كهذا ، إذ لا دليل عليه بل هو محض توهمات وتخيلات فاسدة .

ب . أما الدين فمن المعلوم ضرورة ، ومن اليقينيات لدى كل مسلم أن الله هو الخالق وما سواه مخلوق ، وأن على العباد أن يعبدوا خالقهم ولا يشركوا به شيئا ، وأن أعظم الذنوب على الإطلاق أن يُدَّعى الألوهية في شيء غير الله من حجر أو شجر أو قمر ، فكيف بمن ادعى أن

(١) انظر كتاب الفصوص ، ابن عربي ، ص ٧٣ .

الكون كله هو الإله ، إن هذا لمن أبطل الباطل وأمحل المحال ، لذلك قال العلماء : إن كفر أصحاب القول بوحدة الوجود أعظم من كفر اليهود والنصارى بل ومن سائر المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر .

٢ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في نقد هاتين النظريتين ونقد القائلين بها: (حتى يبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يهوى المردان ، ويزعم أن الرب تعالى تجلى في أحدهم ، ويقولون : هو الراهب في الصومعة ؛ وهذه مظاهر الجمال ؛ ويقبل أحدهم الأمرد ، ويقول: أنت الله. ويذكر عن بعضهم أنه كان يأتي ابنه ، ويدعي أنه الله رب العالمين ، أو أنه خلق السماوات والأرض، ويقول أحدهم لجليسه: أنت خلقت هذا ، وأنت هو ، وأمثال ذلك . فقبح الله طائفة يكون إلهها الذي تعبده هو موطؤها الذي تفترشه ؛ وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً . ومن قال: إن لقول هؤلاء سراً خفياً وباطن حق ، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق : فهو أحد رجلين – إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال ، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال ، فالزنديق يجب قتله ، والجاهل يعرف حقيقة الأمر ، فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحجة عليه وجب قتله . ولكن لقولهم سر خفي وحقيقة باطنة لا يعرفها إلا خواص الخلق . وهذا السر هو أشد كفراً وإلحاداً من ظاهره ؛ فإن مذهبهم فيه دقة وغموض وخفاء قد لا يفهمه كثير من الناس) [١] .

ويقول أيضاً : (وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى ، فيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى ولهذا يقولون بالحلول تارة ، وبالاتحاد أخرى ، وبالوحدة تارة ، فهو مذهب متناقض في نفسه ، ولهذا يلبسون على من لم يفهمه. فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجماع كل مسلم ، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر كمن يشك في كفر اليهود والنصارى) [٢] .

وقال أيضاً: (ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد ، أو جاهل ضال)[٣] .

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، ٢ / ٣٧٨ . ٣٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ٢ / ٣٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ٢ / ٣٦٧ .

النظرية الثالثة : نظرية الكشف والمعرفة : وهي تقوم على اعتبار أن المنطق العقلي وحده لا يكفي في تحصيل المعرفة وإدراك حقائق الموجودات ، إذ لا بد أن يتطور المرء بالرياضة النفسية حتى تتكشف عن بصيرته غشاوة الجهل ، وتبدو له الحقائق منطبقة في نفسه تتراءى فوق مرآة القلب .

زعيم هذه المدرسة : أبو حامد الغزالي .

يقول الغزالي : (المكاشفة عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة ، حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وبكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض ... ثم قال: ونعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء ، حتى يتضح له جبلية الحق في هذه الأمور ، اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه ... ثم قال : وهذا ممكن في جوهر الإنسان ، لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، الحق يتلألأ فيه حقائقه) .

نقد هذه النظرية :

١ . إن التزكية تتحقق بحُسن العبادة والصدق في الإيمان ، فيزداد المؤمن بالتزكية عبودية وذلاً وتواضعاً وحباً لله عز وجل وافتقاراً إليه ، و اهتداءً بنور الكتاب والسنة لضبط أقواله وأفعاله إرضاءً لربه عز وجل ، فيزداد بعلم القرآن والسنة على منهج النبي وطريقة أصحابه رضي الله عنهم تعلقاً بربه و اتباعاً لسنة نبيه صلى الله عليه و سلم على الصراط المستقيم كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [1] ، هذه هي التزكية الحقيقية ، أما تزكية الصوفية فإنهم يزدادون بها إلى إدعاء المكاشفة وحصول العلم اللدني الذي يستغنون به عن الكتاب والسنة والفناء في ذات الله عز وجل وتحقيق ما يسمونه بالعبد الرباني كما في الحديث الموضوع " عبدي أطعني أجعلك عبداً ربانياً تقول للشيء كن فيكون " .

---

(١) سورة الأنعام ، ١٥٣ .

٢ . نقول : على هذا إذا أزيلت هذه القاذورات وتطهر القلب من تراكم هذا الصدأ كما يزعم الغزالي فأنه يصير ممكناً عند الغزالي الإطلاع على اللوح المحفوظ ، ومعرفة مقادير الخلائق حسبما هو مدون فيه ، ومعرفة ما سيكون في المستقبل ، وكشف ما في ضمائر الناس واعتقاداتهم وما تخفيه صدورهم ، وهذا أمرٌ لم يتحقق لنبي من الأنبياء وهم المصطفين الأخيار ، فكيف تحقق للغزالي و أتباعه ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

المبحث السادس :